

(١)

الطريق إلى السعادة

الحمد لله رب العالمين ، القائل في كتابه العزيز : {وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَبِئْسَ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُوذٍ} ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

فقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان ورسم له طريق السعادة في الدارين ، وتلك نعمة من أعظم نعم الله تعالى على عباده ، فهي مقصد وغاية كل إنسان ، الأمر الذي يجعله دائماً وأبداً يبحث عنها ، وعن السبل التي توصله إليها ، ولو كلفه ذلك ما كلفه ، وقد اختلفت توجهات الناس وتباينت آراؤهم في سبل تحقيق السعادة.

فمنهم من يظن أن السعادة في الغنى وكثرة الأموال وجمعها بأي طريق وأي وسيلة ، فتراهم يسعدون إذا كثر المال ويحزنون إذا قلّ ، وهؤلاء نقول لهم: صحيح أن المال يُعدُّ أحدَ ركني زينة الحياة الدنيا كما قال ربنا في كتابه الكريم: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا} ، وقال سبحانه: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} إلا أن المال وحده ليس كافياً لتحقيق السعادة لأنه وسيلة لا غاية ، فكثير من الناس لديهم أموال كثيرة لكنهم لا يشعرون بالسعادة ، بل ربما يكون المال فتنة ووبالاً على صاحبه في

(٢)

الدنيا قبل الآخرة إذا لم يؤدِّ حق الله فيه، لذا يقول الحق سبحانه في شأن المنافقين: {فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ}، ويقول عز وجل محذراً من فتنة المال: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}، ويقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (إِنَّمَا الدُّنْيَا لَأَرْبَعَةِ نَفَرٍ: عَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالاً وَعِلْماً، فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ اللَّهُ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ. وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْماً، وَلَمْ يَرزُقْهُ مَالاً، فَهُوَ صَادِقُ النَّيَّةِ، يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بِنَيْتِهِ، فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ. وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالاً، وَلَمْ يَرزُقْهُ عِلْماً، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ اللَّهُ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ. وَعَبْدٍ لَمْ يَرزُقْهُ اللَّهُ مَالاً وَلَا عِلْماً، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فَهُوَ بِنَيْتِهِ، فَوَزُرُهُمَا سَوَاءٌ).

فالنعمة الحقيقية في المال إنما هي في المال الصالح، حيث يقول النبي (صلى الله عليه وسلم): (نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ) (البخاري في الأدب المفرد).

ومن الناس من يرى السعادة في كثرة الأولاد، ولهؤلاء نقول: مع أن الأولاد هم زهرة الحياة الدنيا وزينتها كما أخبرنا القرآن الكريم في أكثر من آية إلا أن نعمة الولد وحدها لا يمكن أن تحقق السعادة الكاملة، بل ربما كان بعض الأبناء فتنة لآبائهم في دينهم ودنياهم، وفي ذلك يقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَوْا وَتَصَفَحُوا

(٣)

وَتَعَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ* إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ{.

أما النعمة الحقيقية في الولد فهي في الولد الصالح الذي أحسنت تربيته ، يقول النبي (صلى الله عليه وسلم): (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ).

ومن الناس من يرى أن السعادة في الشهرة أو المنصب أو الجاه ، على أن هذه أيضاً إن لم يؤدِّ حق الله فيها وقع المتطلع إليها تحت قول نبينا (صلى الله عليه وسلم) : (مَا ذُئِبَانٍ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ يَأْفَسِدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ).

أما النعمة الحقيقية فهي فيمن أخذ الأمانة بحقها وأدى الذي عليه فيها فيكون صاحبها في مقدمة السبعة الذين يظلمهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ : إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَشَابٌ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ ، فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا ففَاضَتْ عَيْنَاهُ).

ولهؤلاء وأولئك نقول: إن السعادة لا تتحقق بالشهرة وحدها ولا بالجاه وحده ولا بالمنصب وحده ، ولا بالمال وحده ، ولا بالولد وحده ، إنما هي في رضا الله عن الإنسان وتوفيقه له ، ورضا الإنسان بما قسمه الله له ، فيسعد في دنياه وأخراه على حد قول الشاعر :

(٤)

ما أجمل الدين والدنيا إذا اجتمعا *** وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل
ومن فضل الله (عز وجل) على عباده أن يسر لهم سبل السعادة وهياً لهم
أسبابها ليسعدوا في الدنيا والآخرة ، **ومن هذه السبل:**

الإيمان بالله عز وجل والعمل الصالح : الإيمان الذي يزينه حب الله تعالى
وحب رسوله (صلى الله عليه وسلم) وحب المؤمنين ، يقول نبينا (صلى الله
عليه وسلم) : (لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ).
الإيمان الذي تخشع به القلوب وتخضع به الجوارح ، الإيمان الذي يفجر
في قلب الإنسان ينابيع السعادة بالثقة فيما عند الله (عز وجل) والطمأنينة
والسكينة والأمن والأمل والرضا والقناعة مع مباشرة الأخذ بالأسباب ، والتوكل
على الله (عز وجل).

فالسعادة الحقيقية لا تكون إلا لأهل الإيمان بالله (عز وجل) والعمل
الصالح، يقول سبحانه: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ
حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: ٩٧]، ويقول عز
وجل: {فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ
مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ
بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ}، ويقول (صلى
الله عليه وسلم): (ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حِلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ
وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا اللهُ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ
يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَفَ فِي النَّارِ).

ومن سبل السعادة أيضاً : القناعة والرضا بما قسم الله : قناعة الإنسان

(٥)

بعطاء الله ، والثقة في رحمته ، ورضاه بما قسمه له قمة السعادة في الدنيا والآخرة ، فمن ذاق طعم الإيمان والرضا ذاق طعم السعادة ، لقوله (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : (ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيََ بِاللَّهِ رَبًّا ، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَسُولًا) ، وأكد النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) على ذلك بقوله: (مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ اسْتِخَارَتُهُ اللهُ ، وَمِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ رِضَاهُ بِمَا قَضَى اللهُ ، وَمِنْ شِقْوَةِ ابْنِ آدَمَ تَرْكُهُ اسْتِخَارَةَ اللهِ ، وَمِنْ شِقْوَةِ ابْنِ آدَمَ سَخَطُهُ بِمَا قَضَى اللهُ) ، ويقول (صلى الله عليه وسلم): (قد أفلح من أسلم وورق كفافاً ووقعه الله بما أتاه).

فمن رضي بحاله ، وصبر وشكر ربه على نعمه عاش سعيداً ، ومات سعيداً ، ودخل الجنة مع السعداء ، ومن سخط فله السخط من الله ، ولن يأتيه في الدنيا إلا ما كتبه الله له ، فإذا مارضى الإنسان بما قسمه الله له ، ووقع بما أعطاه إياه ، ونظر إلى من هو أسفل منه ولم ينظر إلى من هو أعلى منه في أموره الدنيوية كلها عاش سعيداً في دنياه وأخراه ، يقول: (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): (انظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَلَّا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ). فهذه النظرة التي يملؤها الرضا بعطاء الله يرى الإنسان أنه قد تفوق في العطاء على كثير من الخلق ، وساعتها سيزول همه ، ويذهب قلقه ، ويكشف عنه غمه ، ويزداد سروره وفرحه بنعم الله (عز وجل).

كما أن من سبل السعادة: حب الخير للناس والإحسان إليهم، فإن حب

الخير للناس وقضاء حوائجهم بطيب نفس ابتغاء مرضاة الله (عز وجل) دون نفاق أو رياء أو سمعة هو قمة السعادة عند كثير من الناس ، فالإسلام دعا أتباعه

إلى حب الخير للناس وفعله والتسابق إليه، والمسارعة فيه، وذلك لنشر الألفة بين الناس، بعيداً عن الفردية أو الأنانية أو السلبية، قال سبحانه وتعالى: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}، وقد مدح الله تعالى أهل الخير والبر والعطاء، الساعين لنفع الناس والإحسان إليهم دون النظر إلى مقابل فقال تعالى: {وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا}.

ويقول الشاعر العربي:

تراه إذا ما جئته مهتلاً *** كأنك تعطيه الذي أنت سائله

ويقول آخر:

وإذا طلبت إلى كريم حاجة *** فلقاؤه يكفيك والتسليم

فمن يحسن إلى الضعفاء والمحتاجين وغيرهم تحققت له السعادة الدائمة، يقول نبينا (صلى الله عليه وسلم): (الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار)، ولما سئل النبي (صلى الله عليه وسلم): (يا رسول الله أي الناس أحب إلى الله؟ وأي الأعمال أحب إلى الله؟) فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (أحب الناس إلى الله تعالى أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله تعالى سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً، ولأن أمشي مع أخ في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد - يعني مسجد المدينة - شهراً، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ

(٧)

اللَّهُ قَلْبُهُ رَجَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يَتَهَيَّأَ لَهُ أَنْبَتَ
اللَّهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تَرْوُلُ الْأَقْدَامِ) (المعجم الكبير للطبراني).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

* * *

الحمد لله رب العالمين، وصلاة وسلاماً على خاتم أنبيائه ورسوله سيدنا
محمد (صلى الله عليه وسلم)، وعلى آله وصحبه أجمعين.

إخوة الإسلام: إن هذه السبل وغيرها كالإكثار من ذكر الله تعالى وحسن
التوكل عليه، مع الأخذ بالأسباب، وسلامة الصدر من الأحقاد والأضغان
والكراهية والبغضاء، والوفاء بحقوق الآخرين وغيرها تجعل الإنسان يعيش
سعيداً في دنياه وأخراه، مع التأكيد أن السعادة الشاملة والراحة الدائمة لا
يتحققان إلا في جنة الرضوان، قال الإمام زين العابدين لرجلٍ من جلسائه:
(اتَّقِ اللَّهَ وَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبِ، وَلَا تَطْلُبْ مَا لَمْ يُخْلَقْ، فَقَالَ الرَّجُلُ: وَكَيْفَ
يُطْلَبُ مَا لَمْ يُخْلَقْ؟ فَقَالَ: مَنْ طَلَبَ الْغَنَى وَالْأَمْوَالَ وَالسَّعَةَ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّمَا
يَطْلُبُ ذَلِكَ لِلرَّاحَةِ، وَالرَّاحَةُ لَمْ تَخْلُقْ فِي الدُّنْيَا وَلَا لِأَهْلِ الدُّنْيَا، إِنَّمَا خُلِقَتْ
الرَّاحَةُ فِي الْجَنَّةِ وَلِأَهْلِ الْجَنَّةِ) قال الله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ} .
فما أحوجنا إلى تلمس الأسباب الحقيقية للسعادة الدائمة حتى نعيش حياة
آمنة هادئة مستقرة.

اللهم أسعدنا بطاعتك، وارزقنا الرضا والقناعة بعطائك، وبارك لنا في
نعمك الظاهرة والباطنة، واجعلها عوناً لنا على طاعتك، واجعلنا من الآمنين.